أثر الشعر العربى فى الحروب

للدكتور زكى المحاسنى

حين قرأت الإلياذة التى وضعها هوميروس قلت : « إن على حسام البطل أشيل نقش هوميروس آداب أمته » . ورحت أتقصى الملحمة العربية فلم أجدها على مثل ذلك الطراز من شعر اليونان فى الحروب ، وفكرت فى حماسة الجاهلية ، وانطباع العرب على الحرب ولغتهم الحربية فوجدتهم أمة حرب ونضال . ففى متطاول غزواتهم الصغيرة بين القبائل ، والبطون وفى حروبهم الكبيرة التى كانوا يسمونها أياماً كحرب داحس والغبراء وحرب البسوس — وكانت تدوم السنين — كان لهم فيها شعر سجلوا فيه وقائعهم ، وصوروا آثار حماستهم التى كانت مجالا للفخر ، وسبيلا إلى تعداد الشواهد الباقية فى العزة والمجد . وكان شأنهم فى ذلك شأن الأمم القديمة كاليونان والفرس . غير أن هؤلاء آثروا الملاحم لطول أنفاسهم ، وصبر شعرائهم ، وسعة قوافيهم . وآثر العرب فى الجاهلية المقطعات والقصائد القصار فى شعر الحرب ، استجابة لسجاياهم التى كانت لا تستطيع غير ذلك .

غير أن الحياة الأموية الجديدة قد اقتضت شعر الحرب أن يكون من مقوماتها الكبرى ، ومياسمها الاجتماعية والسياسية . فكان على شعر الحرب فى هذا العصر أن ينهض بما تقتضيه الحروب الكثيرة المنتظمة ، وسط حياة متحضرة ، وشعر متطور ، وسياسة معقدة ، وفتوح تتأزم فى الشرق والغرب وفتن تعج فى الباطن . وكأن القرائح الفذة فى العصر الأموى قد تدفقت فى هذا الضرب من الشعر الحماسى المحتوم ، الذى كان مناط الفحولة ومعقد الجزالة فشاعت حماسته فى الفخر والهجاء ودعايات السياسة وذكر الحروب ، وما كان يخلو شعرهم من حماسة حتى فى زحام الهوى ، ووصف آيات الجمال .

كانت الحماسة الأموية صدى المجتمع وبوقه ، ومن ههنا نشأ شعراء الأحزاب ، وموضوع الشعر الحربى فى عصر الأمويين يكاد يعرف بنفسه

موقعة الجمل ، ويوم تحكيم المصاحف مشرعة بها رؤوس الرماح ، وما جرت حرب على ومعاوية ؛ وثورات الخوارج والشيعة ، وعداوات آل الزبير وحروب الأمويين فى الشرق بخراسان وما وراء النهر ، وفى الغرب على حدود الروم ، وتمدح الشعراء بالقواد وشجاعتهم ، وإشادتهم بالخلفاء والأمراء ، واشتباك كل ذلك ومضاعفاته ؛ كان مادة غنية لشعر الحرب فى ذلك العصر . أأذكر الأخطل ، وقد كان أعظم فروسية وحماسة فى شعر الحرب لأنه عرفها وعركها وكان له يوم مشهود مع الجحاف القيسى فى يوم البشر ، وما تبعه من أيام كيوم الثرثار ، ويوم الشرعبية. وقال جرير غريمه شعراً حربياً كثيراً مزج فيه نفسه وسكب عليه جسه ، وكان صاحب حرب وجلاد ، وكفاه فخراً أن يشهد له الخوارج وهم فى زحام القتال ، فلم تشغلهم المعركة عن أن يقروا أنه أشعر من صاحبه فى وصف الحرب والبطولة . أما الفرزدق فلقد كان جباناً حقاً ، وكان شعره الحماسى ادعاء ، وكان معروفاً بالخوف ، حتى وصفه راوى نسخة ديوانه حبيب الأعرابى بقوله : (كان أجبن من الصافر) .

أما شعر الحرب الذى يشابه إلى حد قريب ملاحم الأمم القديمة كاليونان والهند فلم تكن معالمه واضحة إلا فى العصر العباسى ، حين استطاع الشعراء الكبار أمثال أبى تمام والبحترى والمتنبى أن يصوروا المعارك فى شعرهم .

فى الشرق قامت أكبر فتنة فى العصر العباسى ؛ وهى فتنة بابك الخرمى . وقد حفظ شعر الحرب صور هذه الفتنة ، التى أعجزت المأمون والمعتصم حتى استطاع الأفشين كبير قواد المعتصم أن يأتى ببابك مقيداً مصفوداً وأن يشهد صلبه . وكان تصوير أبى تمام لذلك رائعاً . وكما نهض إمام الشعراء أبو تمام بوصف فتنة بابك فى الجبهة الشرقية بقصائد مطولة من شعره الخالد الرصين ، فكذلك أعطى الأدب العربى منحة لا تبلى فى وصف الحروب العباسية فى الجبهة الغـــربية .

ولقد استطاع البحاثة المستشرق اسكندر فاسيلييف الروسى أن يكشف عن أمور لم ترد فى كتب العرب من وصف الحروب بينهم وبين البيزنطيين ، وكانت مجموعة كتب غوستاف شلمبرجة الفرنسى — الذى وهب عمره وشيخوخته

للكلام على التاريخ البيزنطى والحضارة البيزنطية وعلاقة العرب بالبيزنطيين فى العصر العباسى فى مجلدات قسمها على سنين – أروع أثر فى هذا الموضوع ، وخاصة تاريخ الامبراطور البيزنطى فى القرن العاشر نيسيفور فوكاس . وفى هذه الكتب تجلت حقيقة الشعر العربى فى العصر العباسى الذى وصف أصحابه الحروب مع الروم وتوسعوا فى الكلام على المتنبى وعصر سيف الدولة والحمدانيين

إننا معشر العرب المعاصرين كنا نعلم ما جاء به مؤرخونا عنا ، لكن من يقرأ هذه الكتب ، التى ذكرتها لفاسيلييف وشلمبرجة وغيرهما من أمثال ديبل ورونسيمان – وهم أعاظم علماء التاريخ البيزنطى فى أواخر القرن التاسع عشر والعصر الحاضر – تنكشف له الخبيئات من تاريخنا الحربى ، ومن شعرنا الحماسى مثل الخبيئات من كنوز الفراعنة فى هذه الأرض المباركة التى كتبت هذا المقال تحت سمائها . فان هؤلاء المؤلفين نقلوا التاريخ البيزنطى الذى وضعه يوحنا الشماسى وسيدرينوس وكليكاس ، وكانوا من أفحل المؤرخين البيزنطيين ، عاشوا بين القرن العاشر والحادى عشر للميلاد . كتبوا تاريخ أمتهم ، وسجلوا فى هذا التاريخ الحروب التى جرت بين المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل وسيف الدولة وبين الأباطرة البيزنطيين ميشل الثانى وتيوفيل وميشيل الثالث وقسطنطين الرابع ورومان الثانى ونيسيفور فوكاس وجان تزميسيس . وبضوء هذه المؤلفات أصبحنا نستطيع دراسة شعر الطائيين فى وصف الحروب التى قام بها القائد العربى الكبير أبوسعيد الثغرى . وبهذه الكتب عن التاريخ البيزنطى توضح أسماء الأماكن البيزنطية والحصون والثغور والأنهار التى ورد ذكرها فى الشعر الحماسى عند أبى تمام والبحترى وأبى الطيب وأبى فراس .

ولست أنسى تلك الفتاة الهاشمية التى كانت فى مدينة زبطرة Sozopetra عند هجمة البيزنطيين عليها فنادت : (وامعتصماه) : فلما بلغ نداؤها الخليفة العباسى ، وكان جالساً فى إيوانه على السرير ، نهض مستجيباً : لبيك ، لبيك أخت العرب . وانطلق بجيوشه الأربعة إلى أرض بيزنطة حتى هدم أنقرة ثم حاصر عمورية وفتحها . وقد كتب شعراء بيزنطة مراثى بلغ عددها الستين مرثاة فى شهدائهم بهذه الموقعة . كما جلا أبو تمام صورها الرائعة الأخاذة التى لا يبليها

الزمان فى قصيدته البائية؛ إذ صور هذا الفتح المبين فى شعر عرضه فى المعرض الحماسى المنقطع النظير .

كان أبو تمام والبحترى يقصدان أبا سعيد الثغرى فى الثغور ويقدمان إليه مدحاتهما الحماسية فى وصف حروبه للروم وغزواته واحدة واحدة ، وينالان على ذلك أعطياته . وقد شهد معه أبو تمام حرباً ، وكذلك فعل البحترى ووصفا ذلك بشعرهما الحماسى ، وقد بات إسم أبى سعيد فى ديار البيزنطيين كاسم الغول فصارت النساء البيزنطيات تخيف أولادهن الصغار به لتنام وتهدأ عن البكاء إذا تمردت على الهدوء والنوم ، فقال البحترى فيه :

فزعوا باسمك الصبى فعادت حركات البكاء منه سكونا
ربما وقعة شملت بها الروم فباتوا أذلة خاضعينا
قد أمنا أن يأمنوك على حال ولو صيروا النجوم حصونا

وكما كان شعر الحرب معنياً بوصف المعارك فى البر ، فكذلك عند العرب فى العصر العباسى كان لا يخلو من تصويرها فى البحر . فلقد عرف العرب الحرب البحرية منذ أدرك عمر بن الخطاب عواقبها بعد أن خسر هرثمة الأذرى مراكبه فى بحر عمان . لقد أنكر عمر هذه الحرب التى لم يألفها العرب ، فكتب إلى معاوية ، وكان عاملا له على الشام ، حين أراد غزو البيزنطيين فى البحر :

« والذى بعث محمداً بالحق لا أحمل فى البحر مسلماً أبدا . وتالله لمسلم واحد أحب إلىّ مما حوت الروم ». لكن معاوية الداهية انتظر حتى صار الأمر إلى عثمان فأنزل فى البحر أعظم عمارة بحرية . وقد كتب بفاتحة أسطوله العربى خاتمة الأسطول الرومانى . وقد عنى المستشرق الأستاذ ماريوس كنار بتتبع حركة الحرب البحرية عند العرب . وإنها لتحفة غالية تلك القصيدة الحماسية الرائعة التى وصف بها أبو عبادة البحترى الحرب البحرية فى أسطول المتوكل ، وكان أمير البحر على هذا الأسطول أحمد بن دينار بن عبدالله . وقد وجدت البيزنطيين كانوا يسمونه Apodynar وفيه يقول البحترى :—

يا أحمد احمدنا الزمان وأسهلت لنا هضبات المطلب المتوعر
ولما تولى البحر بالخير صنوه غدا البحر من أخلاقه بين أبحر

وقد وصف البحترى ملحمة البحر عند قوله عن العرب وهم يرشقون البيزنطيين أصحاب اللحى الشقراء بكرات فيها اللهب :

إذا رشقوا بالنار لم يك رشقهم ليقلع إلا عن شواء مقتر
صدمت بهم صهب العثانين دونهم ضراب كإيقاد اللظى المتسعر
يسوقون أسطولا كأن سفينه سحائب صيف من جهام وممطر

وكان البحترى بقصيدته الحربية البحرية هذه أعظم شاعر عربى قديم وصف المعركة البحرية .

وحين أسس سيف الدولة دولته فى شمال سورية شغل بحرب البيزنطيين طول حياته . وفيه يقول شاعره الأكبر أبو الطيب المتنبى الذى نجد فى ديوانه سجلا رائعاً لوصف البطولة الحمدانية :—

أنت طول الحياة للروم غاز فتى الوعد أن يكون قفول
وسوى الروم خلف ظهرك روم فعلى أى جانبيك تميل

وإن ساحة القول أمامى على شعر الحرب عند أبى الطيب المتنبى منبسطة . نستطيع أن نخرج من شعر المتنبى ذكر معارك سيف الدولة معركة بعد معركة ونستعين بالتاريخ البيزنطى على تحديد المواقع ، ومعرفة القواد الروميين . فمعركة خرشنه ومعركة الثغور ، والحدث الحمراء، والدرب ، كل ذلك مواقع بين بيزنطة والعرب فى العهد العباسى سجلها شعر المتنبى أيما تسجيل . وأكاد أعد كل ذلك ملحمة مسردة متتابعة مع الشر العربى وأثره فى الحروب . وتكاد تكون قصائد أبى الطيب فى وصف الحرب أعز ذخر عربى حماسى يضاهى ملحمة هوميروس بل يزيد عليها فى توقد الحماسة، وإن نقص فى الفن والتصوير والتنسيق ، فان كانت الحماسة بعثاً للشجاعة وتصويراً لتهاويل البطولة ، فالمتنبى فيها أروع من هوميروس ومن الفردوسى . لقد كان أبو الطيب فارساً وكان شجاعاً ، وكان محارباً ، فوصف حروب سيف الدولة وقد شهد أكثرها كما يعترف بذلك التاريخ . فأبو الطيب مناضل وصاحب ملحمة معاً ومن ههنا كانت حماسته أروع وأصدق . أما هوميروس فلم يشهد حرب طروادة وإنما رواها ، وهو لم يصدق فيها كما صدق أبو الطيب فى وصف الحرب، فقد تخيلها ممزوجة بالخرافات والأساطير ؛

فالآلهة وأنصاف الآلهة تحارب مع آشيل وبريام وهيكطور وأغامسنون وتتجلى الجنيات الفاتنات لأندروماك الساحرة وهيلانة اللعوب .

قال الشريف الرضى فى المتنبى : وأما أبو الطيب المتنبى فقائد عسكر .

وكم وقفت طويلا على أبيات له فى سيف الدولة كانت مصداقاً لقول الرضى قال فيها أبو الطيب واصفاً سيف الدولة بحروبه :

فبت ليالياً لا نوم فيهـا تخب بك المسومة العـراب
يهز الجيش حولك جانبيه كما نفضت جناحيها العقاب
وجيلا تغتذى ريح المـوالى ويكفيها من المـاء السراب

ولئن كان كلامى هذا على أثر الشعر العربى فى الحروب عند العرب الأوائل ؛ فليت شعرى ما هو شعر الحرب عند العرب المعاصرين ؟ إنى لن أنقصهم حقهم فى هـذا الشعر وإسهامهم فى قوله ؛ فان للبارودى قصائد حماسـية وقادة لا هبة ؛ وصف فيها الحرب وما حبت فيها أرواح الحماسة وعزمات النفوس . ولشوقى قصائد مطولة فى وصف حروب الترك وثورات البلقان والفتح المبين الذى كان على يدى مصطفى كمال زعيم الترك ؛ وله القصائد الباقية على وجه الدهر فى وصف الحركة الوطنية بمصر وجهاد الوطنيين والسياسيين . ولا ننسى نحن السوريين ما سجل من مآثر حركاتنا الحماسية والوطنية فى طلب الاستقلال والتخلص من مظالم المحتلين . وكان لحافظ ابراهيم حماسياته المشهورة . ولكن أين كل هذا الشعر من الملحمة العربية التى ننتظرها والتى ما زال أدبنا العربى مفتقراً إليها ؟ إن شعر الحرب وحده وهو منقطع الأسباب متناثر الحوادث لا يستطيع أن يسد فى أدبنا العربى ثغرة الملحمة .

وانى وإن كنت أجد للعرب شعراً فى الحرب كثيراً — وأخبار الحرب طويلة والحديث عنها يطول — فانما أجد خير شعر قالته العرب فى حروبها هو ما دعاها إليه احتكاكها بغيرها من الأمم ، ومن ههنا يكون شعر الحرب الذى يعبر به الشعراء عن خواطر الشعب بأسره فى المعركة والانتصار . فشعر العرب فى حروبهم مع الروم منذ أيام المأمون إلى أواخر العهد الذى عاش فيه سيف الدولة هو المرحلة الملحمية التى يصح أن تعبر عن شعر الحرب عند أمة العرب تعبيراً فنياً راقياً .

أما الشعر الذى قاله الشعراء فى الفتن الداخلية والقبلية فلا أعده من شعر الملاحم لنقص وصفه الشعبى .

وقد تفرد العرب فى شعرهم الحربى بما لم تشاركهم فيه الأمم المحاربة التى وصفت أبطالها ووقعاتها إلا فى القليل وهو عنايتهم الفائقة بوصف الخيل المحاربة ومناجاتها كما فعل عنترة حين قال :

وازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعبرة وتحمحم

ولم يخل شاعر عربى من قولة يقولها فى الخيل حين يمس الحرب بشعره وحق بذلك للعرب فقد كانت الخيل لديهم معقوداً بنواصيها المعارك والظفر فيها وظهرت عند أبى الطيب العناية بوصف الخيل المحاربة وتقصى أوصافها فى القتال .

وقد بت أسأل نفسى فى أعقاب هذا المقال أيظل الشعر منسكباً على وصف الحرب لدى الأمم حين تفتح ديوان فخارها ، أم يكتب للأمم سلام أبدى لا يعوز الشعر فيه صلصلة السلاح ولا دمدمة المدافع ؛ فان للشعر مادة ينضحها من الشعور ، وهل كان شىء أفزع للنفوس من الحرب وأكثر إثارة للأعصاب من ويلاتها ، إن الشعر وحى الانسانية ، وكلام الروح الصافية . وهو وإن سخره الشعراء للتعبير الحماسى فى وصف الحروب ، فان العالم المتخبط الذى يفقد حضارته بالحروب وكوارث القتال يتوق إلى الهدوء ويريد أن يكون الشعر نغماً له حنونا يهدهد حياته بسلام . ولكن هيهات أن يتحقق هذا الحلم الأسمى ؛ فان غريزة الحروب فطرية فى الانسان ، ولدت معه منذ كان على الأرض ولا تزال ترافق كل مولود . وعدوان بعض الأمم على بعض هو دأب الخليقة فلنعد ما استطعنا من قوة لنواجه أعداءنا المتربصين بنا ، ولنرقب شاعرنا المنتظر الذى يصوغ لنا ملحمتنا فان الأمة العربية العتيدة لترصد اليوم نجماً يسطع فى سماء الشعر العربى يسجل صاحبه لها تاريخها الحماسى ، ومعاركها الحربية ، فى قصيدة جامعة كبرى على أناشيد متوالية يبدؤها من فجر تاريخنا الحربى إلى يومنا هذا . وعندئذ تكون لنا ملحمة كالياذة هوميروس والشاهنامة والمهابهاراته أو كأنشودة رولان عند الغربيين نردد أبياتها لنوقد حماستنا ونجعلها تعويذة لأرواحنا الأبية ومروءاتنا

وبلسما لجراحاتها وحافزاً لانبعاثنا يموج فيها بيان من روح الشاعر القديم الذى يقـــول :

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أوقطرت دما

إذا ما أعرنا سيداً من قبيلة ذرى منبر صلى علينا وســـلما

فهل يساعف الزمن بشاعر تنتظره نهضتنا المعاصرة لينظم لنا الملحمة المنشودة الخالدة ؟

زكى الحاسنى

obeikandl.com